نحو تأويل لساني وظيفي للخطاب الشعري

"بعض معلقة عمرو بن كلثوم نموذجا"

د. مصطفى عقلي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان ببني

ملال المملكة المغربية

الملخص:

تروم المداخلة استثمار الآليات والإواليات اللسانية الوظيفية لقراءة الخطاب الشعري، بغية تمحيص مدى انطباقيتها على هذا النمط الخطابي، بعدما أثبتت جدواها في قراءة أنماط خطابية أخرى نحو الخطاب السردي والخطاب الإشهاري وغيرهما، ورصد مدى إحرازها الكفاية الإجرائية مطمح التنظير اللساني الوظيفي الحديث خاصة في إطار نظرية النحو الوظيفي.

لبلوغ هذه الأهداف، سنقسم المداخلة إلى أربعة محاور، نخصص الأول منها لتحديد مفهوم الخطاب وظيفيا ومستوياته وطبقاته، ونخصص الثاني لإثارة إشكال تنميط الخطابات والفرضيات الواردة في هذا الصدد، كما نخصص الثالث لتحديد مفهوم الخطاب الشعري وظيفيا والمقاربات الوظيفية المقترحة لتأويله، ونخصص الرابع لتأويل لساني وظيفي لبعض أبيات معلقة عمرو بن كلثوم. وذلك وفق التصميم الآتي:

1- الخطاب وظيفيا: مستوياته وطبقاته.

2- الخطاب وإشكال تنميطه وظيفيا.

3- الخطاب الشعري وظيفيا: الحد والمقاربة.

4-نحو تأويل لساني وظيفي لبعض أبيات معلقة عمرو بن كلثوم.

والله من وراء القصد.

Abstract:

This research aims to exploit the functional linguistic mechanisms to interpret the poetic discourse, in order to know to what extent its applicable on this rhetorical style as well, after it has proven its usefulness in reading other kind of discourses as well as the narrative discourse, and the advertising discourse and others, and to keep an eye on the extent it has achieved procedural adequacy, the aspiration of modern functional linguistic theorizing, especially in the theory Functional grammar

To achieve these goals, we will divide the intervention into four axes, the first of which is devoted to defining the functional concept of discourse and its levels and layers, and we dedicate the second to raising the typology of discourses problimatical and hypotheses contained in this regard, and we dedicate the third to defining the functional concept of poetic discourse and the functional approaches proposed for its interpretation, and we dedicate the fourth to a functional linguistic interpretation. For some verses hanging Amr bin Kulthum. According to the following design:

1-Discourse functionally: its levels and layers;

2-Discourse and its functional typology problimatical;

3-Functionally poetic discourse: limitation and approach.

4- Towards a functional linguistic interpretation of some of the hanging verses of Amr bin Kulthum.

1-الخطاب وظيفيا: مستوياته وطبقاته؛

دأب التنظير اللساني الوظيفي على اتخاذ الخطاب موضوعا لاشتغاله، واعتبره الوظيفيون إنتاجا لغويا يُربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروف إنتاجه السياقية، أي تبعية الأولى للثانية، والنظر

إلى البنية والمعلومات التركيبية والصرفية الصوتية المتعلقة بها باعتبارها مجرد انعكاس صوري بنيوي للوظيفة والمعلومات التداولية والدلالية المجردة التي تحتاج إلى التحقيق الفعلي بنيويا.

ومن هذا المنطلق، حظي الخطاب باهتمام النظرية ونماذجها المتعاقبة، خاصة الحديثة منها، وبالتحديد نموذج نحو الخطاب الوظيفي، وذلك بعدما استقر رأي الوظيفيين حول كيفية الانتقال بالنظرية من دراسة الخطاب/الجملة إلى دراسة الخطاب بمفهومه الواسع وأقسامه المختلفة، سواء أكان كلمة أم مركبا اسميا أم جملة أم نصا، على توسيع الآليات والإواليات الوصفية والتفسيرية المعتمدة لدراسة الجملة سابقا واستثمارها لمقاربة الخطاب بمفهومه الواسع وقضاياه النظرية والإجرائية.

لتعميق المعرفة أكثر في هذا الموضوع، والوقوف عند الجهود المبذولة فيه في إطار اللغة العربية، أحيل فضيلتكم على (المتوكل 2001، جدير 2007، عقلي 2018أ ... من بين آخرين)

فبات الحديث عن الفعل الخطابي، باعتباره أصغر وحدة خطابية، يمكن أن يتحقق في قسم من الأقسام الخطابية السالفة الذكر، ويتكون من: "قوة إنجازية (نج) ممثل لها في شكل إطار إنجازي مجرد، يتخذ موضوعات له المتكلم(ك) والمخاطب(ط) والفحوى المراد تبليغه (ف1)، ويتكون عنصر الفحوى نفسه من فعلين لغويين: فعل حملي (ح1) وفعل إحالي (إح1)" (المتوكل 2005: 68). ويمثل له في بنيتين تحتيتين: "بنية علاقية" و"بنية تمثيلية"

أ– البنية العلاقية: يمثل فيها لمختلف المعلومات والعلاقات التداولية في الفعل الخطابي (ف.خ)، لذلك نجدها تحتوي القوة الإنجازية (نج) (خبر، استفهام...)، ومؤشري المتكلم(ك) والمخاطب(خ)، وفحوى الخطاب (ف.خ) الذي يحتوي، بدوره، فعلا إحاليا (إح) وفعلا حمليا (ف.ح). ويتصدر كلا من الفعل الخطابي والفحوى الخطابي مخصص، في حين تسند إلى الأفعال الإحالية والأفعال الحملية وظائف تداولية (محور، بؤرة).

يمكن التمثيل لبنية الفعل الخطابي العلاقية بالآتي:

(1) [(π فعل خطابي 1: [قوة إنجازية [(ك) (ط) (π فحوى خطابي 1: [(حمل 1) Ω (إحالة 1) Ω] (فحوى خطابي 1))]](فعل خطابي 1))]

حيث π = مخصص، و Ω = وظيفة تداولية.

ب– البنية التمثيلية: يمثل فيها لمختلف المعلومات والعلاقات الدلالية المتعلقة بفحوى الخطاب، وتتكون من طبقتين اثنتين: طبقة عليا تعكس "القضية"، وطبقة سفلى تعكس "الواقعة"؛ بالنسبة لطبقة القضية، يمثل فيها للسمات الوجهية، ويقصد بالسمات الوجهية السمات التي تؤشر لموقف المتكلم من فحوى خطابه (يقينا أو شكا أو احتمالا أو ظنا...)، وتتحقق هذه السمات، في إطار اللغة العربية، في وحدات معجمية، كالظروف التي من قبيل: "قطعا"، و"فعلا"، و"دون شك" مثلا، أو في أدوات مثل: "إن"، ولام ونوني التوكيد...

أما بالنسبة لطبقة الواقعة، فهي موطن التمثيل للواقعة (عمل، أو حدث، أو وضع، أو حالة) وللذوات المشاركة فيها. وبذلك، فإن الواقعة يمثل لها في شكل بنية حملية، تتضمن محمولا (فعلا أو اسما أو صفة أو ظرفا) وفئتين من الحدود: حدود موضوعات (ضرورية) وحدود لواحق، حاملة لوظائف دلالية.

يمكن توضيح البنية التمثيلية للفعل الخطابي، بالتمثيل للجملة الآتية:

(2) فعلا، سيسافر خالد إلى الرباط.

(3) [(كد قضية 1: [(سق واقعة 1: [(محمول: س. ف. ر) (موضوع 1: خالد) منف (لاحق 1: الرباط)] (واقعة 1) (لاحق 2: فعلا)] (قضية 1))].

حيث: كد = تأكيد، وسق = مستقبل.

لكن ما يهمنا في هذا العمل هو كيف تفسر الأفعال الخطابية الواردة في خطاب واحد خاصة الخطاب الشعري؟ وما طبيعة العلاقات الرابطة بينها؟ وكيف يمثل لها في إطار هذا النموذج الحديث؟

من الإجابات الوظيفية الواردة في هذا المضمار اقتراح د. أحمد المتوكل (المتوكل 2009) الذي بيّن أن الخطاب حين يتضمن "أكثر من فعل خطابي واحد (كما هو الشأن في محادثة أو نص سردي مثلا) تقوم بين الأفعال الخطابية المتواردة فيه إحدى علاقتين: علاقة تكافؤ أو علاقة تبعية، فنكون إما أمام فعلين خطابيين «نوويين» أو فعل خطابي نووي وفعل خطابي «تابع»" (المتوكل 2009: 9).

وأضاف موضحا ذلك:" لا تسند إلى الفعلين الخطابيين النوويين أية وظيفة، وقد يأخذ الفعل الخطابي التابع وظيفة علاقية من قبيل «العلة» أو «التوجيه» أو «التصحيح» أو «الوصف»"(ن. م).

مفاد ما سبق، أن الأفعال الخطابية عندما تتعدد في الخطاب الواحد تكون محكومة بعلاقات الاستقلال أو التبعية، وتبرز هذه العلاقات في بنية الخطاب من خلال تمظهرات بنيوية (صوتية صرفية تركيبية). كما سنبين من خلال بعض الأفعال الخطابية الواردة في معلقة عمرو بن كلثوم.

لكن قبل ذلك أود إثارة إشكال تنميط الخطابات، والفرضيات الوظيفية المقترحة لتجاوزه، وكيف يتحدد الخطاب الشعري وظيفيا؟ وإلى أي نمط ينتمي؟

2- الخطاب وإشكال تنميطه وظيفيا.

2-1 بعض معايير تنميطه.

من المعلوم في الأوساط البحثية الخطابية أن تنميط الخطابات يرتكز على مجموعة من المعايير؛ حددها د.أحمد المتوكل (المتوكل2001) في خمسة معايير قابلة للزيادة، هي:

(أ) غرض الخطاب: ويقصد به الغرض التواصلي المستهدف من خلال الخطاب، وعلى غراره يمكن تصنيف الخطابات إلى "خطاب سردي، وخطاب وصفي، وخطاب احتجاجي، وخطاب تعليمي، وخطاب ترفيهي، وغير ذلك" (المتوكل 2001: 21).

(ب) نوع المشاركة فيه: بحيث "يمكن أن يكون الخطاب حوارا ثنائيا، أو حوارا جماعيا، أو مجردا 'مونولوج' (أي خطاب لا يوجهه المتكلم لغير نفسه)، وقد يرد الصنف الثالث إلى الصنف الأول على اعتبار أنه حوار إلا أنه منعكس، حوار قائم بنفس الذات" (المتوكل 2001: 21).

(ج) طريقة المشاركة: وهنا نتحدث عن ثلاثة أنواع من المشاركة:

- **مباشرة** تكون بين متخاطبين متواجهين أثناء عملية التخاطب.
- **غير مباشرة** وتتجلى حينما يكون الخطاب مكتوبا.
- **شبه مباشرة** وتتم عن طريق المهاتفة أو عن طريق البث الإذاعي أو التلفزي.

(د) نوع قناة تمريره: حيث يمكن أن يكون الخطاب شفويا أو مكتوبا.

(هـ) وجهه: يقسم الخطاب استنادا عليه إلى قسمين: (أ) الخطاب الموضوعي الذي يكون خاليا من أي تدخل من لدن المتكلم، حيث يكون مصدر الخطاب مجرد "كائن من ورق" على حد تعبير بارت (1970)، و(ب) الخطاب الذاتي الذي يكون مصدره المتكلم، بوصفه كائنا حيا يضمن الخطاب انفعالاته وعواطفه ووجهات نظره.

ما نشير إليه هنا، هو أن هذه المعايير ليست الوحيدة الممكنة، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه، بل يمكن إضافة معايير أخرى، كما أنه يتعين ضم هذه المعايير بغية الحصول على أنماط من الخطابات القارة، مثال ذلك، كما يرى د المتوكل، "أن يضم المعيار الوجهي "موضوعي" إلى المعيار الغرضي "سردي" والمعيار القناتي "كتابي" ومعيار المشاركة "غير مباشر" فنحصل بذلك على ما يسمى، تبعا

لبنفنست(1966)، "السرد الصرف".

وتتجلى أهمية تنميط الخطاب، وفق هذه المعايير، في إبراز الخصائص الداخلية للخطاب، وتحديد:

(أ) عالمه: الذي يتسم بكونه عالما ذهنيا مستقلا عن الواقع الخارجي، قد يصف الواقع، وقد يقتطع جزءا منه، وقد يكون عالما وليد التخيل المحض.

(ب) أسلوبه (Style): باعتباره "كل نهج في استعمال اللغة يتسم بالخصوصية وقدر كبير من الاستغلال. وتكمن هذه الخصوصية لا في المعجم فحسب، كما يُظن غالبًا، بل كذلك في باقي مستويات اللغة كالدلالة والتركيب والتداول" (المتوكل 2001: 24). ويحدد نوع الأسلوب استنادا إلى نمط الخطاب بحيث يُستعمل للخطاب السردي أسلوب يخالف أسلوب المحادثة.

(ج) بنيته: ونشير هنا إلى أن "نمط الخطاب من أحد أهم محددات البنية بحيث إنه من الميسور ملاحظة أنه رغم الثوابت التي تتقاسمها مختلف الأنماط الخطابية ثمة متغيرات تخص كل نمط وتلازمه". (المتوكل 2001: 24).

2-2 نحو تنميط لساني وظيفي جديد للخطابات.

من الفرضيات الوظيفية المقترحة حديثا لتنميط الخطابات، واللغات أيضا، وفق الآليات والإواليات اللسانية الوظيفية الحديثة، والتي لم تنل حظها من الدراسة والتمحيص، الفرضية القائلة بأننا:" نستطيع تنميط الخطابات على أساس عدد ونوع مكونات وعلاقات البنية النموذج المتحققة؛ فيصبح من الممكن الحديث عن خطابات تُغلّب المستوى التمثيلي، وخطابات تغلب طبقات من الطبقات الخمس على الطبقات الأخرى، وخطابات تنتقي علاقات (وظائف وإحالا) معيّنة، وخطابات تغلب وجهًا على وجه وهكذا دواليك. ومن مزايا إعادة تنميط الخطابات على هذا الأساس التقريب بين أصناف من الخطابات يسود الاعتقاد

أنها متباينة، ومد الجسور بين ما يسمى "الخطاب العادي" و"الخطاب غير العادي" (الأدبي مثلا)، وإرجاع الفرق بينهما إلى مجرد اختلاف في التعامل مع البنية النموذج العامة، من ناحية، وإلى اختلاف في إسهام واشتغال القوالب من ناحية أخرى."(المتوكل 2013: 651).

مفاد ذلك، أن أساس هذا التنميط اللساني الوظيفي المقترح هو بنية الخطاب النموذج ومستوياتها وطبقاتها، باعتبارها بنية خطابية تتوزع عناصرها في مستويين:" مستوى علاقي ومستوى تمثيلي يتضمنان عددا معينا من الطبقات وتقوم بين هذه العناصر مجموعة من العلاقات الوظيفية والإحالية وغيرها التي تقوم بدورين أساسيين، ربط العناصر بعضها ببعض من جهة، وربط البنية ككل بالعالم الذهني الذي يحيل داخله من جهة أخرى" (المتوكل2001: 150).

وبناء عليه، يمكن اعتبار هذه البنية بمثابة إطار افتراضي أو بنية مجردة، تتحقق في مختلف أقسام الخطاب، سواء أكان كلمة مفردة أم مركبا أم جملة أم نصا، بنسب متفاوتة من حيث الكم والكيف من قسم إلى قسم ومن نمط إلى نمط، وتتكيف مع خصائص كل قسم وكل نمط. تضم مستويات وطبقات ووظائف وعلاقات؛ تتحدد المستويات في مستويين تحتيين: المستوى العلاقي والمستوى التمثيلي، وفي مستوى بنيوي عبارة عن تحقق صرفي تركيبي تطريزي لمختلف المعلومات المجردة الواردة في المستويين التحتيين وطبقاتهما. باعتبارهما مستويين يمثل فيهما لمختلف المعلومات الدلالية والتداولية التي تحكم العملية التواصلية بين مستعملي اللغة الطبيعية في مقام تواصلي معين، كما يمثل فيهما لمختلف العلاقات التي تربط مكونات العملية التواصلية؛

بالنسبة **للمستوى العلاقي** يضم طبقتين: **طبقة الإنجاز**، وفيها يُمثل للعلاقة بين المتكلم والمخاطب ويتحدد ذلك من خلال القوة الانجازية المواكبة للخطاب اللغوي (الحرفية والمستلزمة)، **وطبقة القضية**،

وفيها يمثل للعلاقة بين المتكلم وفحوى خطابه يقينا أو شكا أو ترددا أو غيرها، أي هي الطبقة التي تسمح للمتكلم بتقويم مدى ورود فحوى خطابه أو موقفه منه من خلال توظيف السمات الوجهية الذاتية (قد، فعلا، بصراحة...) أو المرجعية (يبدو، علمت...)، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه.

أما **المستوى التمثيلي**، فيضم ثلاث طبقات: **طبقة الوصف**، يتحدد فيها "نمط المحال عليه سواء أكان واقعة أم كان ذاتا بالنسبة للواقعة، مثلا، تحدد هذه الطبقة ما إذا كان يتعلق الأمر بعمل أو حدث أو وضع أو حالة" (المتوكل 2001: 94). **فطبقة التسوير** من (السور): يتحدد فيها بدورها "حجم أو عدد أو كم الوقائع أو الذوات المحال عليها. من أمثلة عناصر هذه الطبقة الأعداد والأسوار بالنسبة إلى الذوات، وبعض السمات الجهية («متكرر»، «معتاد»...) بالنسبة إلى الوقائع" (المتوكل 2001: 94). **ثم طبقة التأطير**، وهي الطبقة التي تحدد، كما توحي بذلك تسميتها، الإطار" الزماني والمكاني والمعرفي بوجه عام، الذي تتحقق فيه الواقعة، أو الذات المحال عليها." (المتوكل 2001: 94).

ما يمكن ملاحظته مما سبق، هو أن هاته الطبقات الثلاث تضطلع بعملية رصد الصورة الذهنية (أو التمثل الذهني) للواقعة أو الذوات المشاركة فيها، وتؤطرها في الزمان والمكان، فهي بذلك تمثل البنية الدلالية لهذه الواقعة.

وعموما فهذه الفرضية، رغم وجاهتها وقوة ما تعد به وظيفيا، مازالت في بداية التمحيص والتأكد من مدى انطباقيتها على مختلف أنماط الخطابات، وفي انتظار نتائج الأبحاث التي تنجز في هذا الصدد، سنراهن في مقالنا هذا على رصد بنية القصيدة ومكوناتها، وأثر النمط الخطابي الشعري المنتمية إليه في تحديد مكوناتها وطبيعة العلاقات البنيوية الرابطة بينها، بغية التحقيق اللغوي الفعلي للقصد والغايات التواصلية التي يتوخاها الشاعر عمرو بن كلثوم من خلالها. وهذا الأمر يدفعنا أولا إلى التعريف

بنمط الخطاب الشعري وبعض خصائصه وظيفيا.

3- الخطاب الشعري وظيفيا: الحد والمقاربة.

3-1 حد الخطاب الشعري وظيفيا.

نشير بداية إلى أن النظرية الوظيفية استطاعت الفصل بين مصطلحي النص والخطاب، وتجاوز الخلط بينهما واستعمالهما الترادفي، من خلال تحديد الخطاب في **كل إنتاج لغوي** يربط فيه ربط تبعية بين بنيته الداخلية وظروف إنتاجه المقامية، دون إدراج عامل الحجم في التحديد؛ فكل إنتاج لغوي يفيد مختلف أقسام الخطاب سواء كان كلمة أم مركبا أم جملة أم ما يفوق الجملة (النص)، ومن ثمة، يصبح النص قسما من أقسام الخطاب إذا رُوعي في إنتاجه وتأويله الترابط الحاصل بين بنيته الداخلية وظروف إنتاجه المقامية.

وبناء على معايير التنميط السالفة الذكر، خاصة معيار الغرض، يصنف الخطاب إلى الخطاب الديني والخطاب العلمي... والخطاب الفني (الإبداعي) الذي يندرج ضمنه الخطاب الشعري، باعتباره نمطا خطابيا ضمن النمط الفني عامة، له عالمه وأسلوبه وبنيته الخاصة؛

- **من حيث عالمه الخطابي:** فإنه يمتاز بالغنى والتنوع باعتباره عالما ذهنيا مستقلا عن الواقع الخارجي، قد يصفه، وقد يقتطع جزءا منه، وقد يكون عالما وليد التخيل المحض، على حد قول الدكتور المتوكل (المتوكل 2013). كما سنبين من خلال العالم الخطابي الذهني الذي يحكم معلقة عمرو بن كلثوم متن الاشتغال.
- **من حيث أسلوبه الخطابي:** فإنه بدوره يمتاز بنهجه الخاص في استعمال اللغة بمختلف مستوياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والتركيبية والتداولية. وسيتأكد لنا الأمر من خلال الأسلوب

المعتمد في القصيدة.

- **من حيث بنيته الخطابية:** فإنه يمتاز بالتناسب بين مكونات بنيته والعلاقات القائمة بين هذه المكونات، سواء أكان شعرا تقليديا أساسه عمود الشعر كما حدده المرزوقي وغيره، أم شعر التفعيلة المبني على أساس الدفقة الشعورية ومقتضياتها البنيوية أم غيرهما، ومن أبرز هذه المكونات المطلع أو المقدمة والغرض والبنية الإيقاعية والدفقة الشعورية...بما في ذلك وحدة الجمل التي تكون وحداته، كما سنبين في المحور الموالي.

2-3 بعض فرضيات مقاربته وظيفيا.

لمقاربته وظيفيا، طرحت فرضيات في إطار نموذج مستعملي اللغة الطبيعية؛ منها ما اقتصر على التفاعل بين قوالب النموذج الخمسة(ديك 1989-1997، المتوكل 2001...)، ومنها ما افترض قالبا خاصا بهذا النمط الخطابي هو القالب الشعري أو التخيلي(البوشيخي 1998، البوشيخي 2012)، وظيفته رصد الطاقة التخيلية لدى مستعملي اللغة الطبيعية التي تمكنهم من إنتاج مختلف الخطابات الفنية[1] وفهمها شعرية كانت أم غيرها، باعتبارها "الطاقة التي تمكن مستعمل اللغة الطبيعية من اختلاق صور افتراضية تنتمي إلى أحد العوالم الممكنة، ومن بناء وقائع متخيلة تنتمي إلى أحد العوالم الخيالية لتحقيق أهداف تواصلية محددة."(البوشيخي 2012: 92).

وفي تعليق صاحب هذه الفرضية الدكتور عز الدين البوشيخي على هذا التعريف، قال:" يُفاد من هذا التعريف أن إقامة التواصل اللغوي بين المخلوقات البشرية يتطلب في أحيان كثيرة استخدام عبارات لغوية تحيل على وقائع لا تنتمي بالضرورة إلى العالم الواقع، بل قد تنتمي إلى أحد العوالم الممكنة أو

[1] - أحيلكم على أعمال (عقلي 2020) و(عقلي 2021) و(عقلي قيد الطبع)، حاولنا من خلالها إبراز أهمية القالب التخيلي في عمليتي إنتاج الخطابات وتأويلها بما في ذلك الخطاب القرآني والخطاب السردي.

أحد العوالم الخيالية"(البوشيخي 2012: 92)، وهذا ما تأسست عليه مختلف العوامل التي تؤطر القصيدة، كما سنبين لاحقا.

يقول الدكتور أحمد المتوكل في هذا الشأن: "يقوم هذا الاقتراح على افتراض أن الملكة الشعرية ليست إلا فرعا من فروع القدرة التواصلية تتوافر بالقوة لدى جميع مستعملي اللغة الطبيعية وإن كان "تفعيلها" يتم حسب سلمية تتفاوت درجاتها بين المتكلم "العادي" و"الأديب" (الشاعر وغيره). مودّى هذا الافتراض أن الخطاب "الفني" (شعرا أو نثرا) ليس وليد قدرة أخرى غير قدرة التواصل المشتركة وأنه يُصبح، بالتالي، جزءا من موضوع النظرية اللسانية ذاتها. من مزايا هذا الافتراض، إن صح، أنه يوفر علينا وضع نظرية (أو نظريات) تخص هذا النمط الخطابي بعينه حيث يصبح من الممكن أن تضطلع نفس النظرية اللسانية (كنظرية النحو الوظيفي مثلا) بوصف الخطاب الطبيعي بجميع أنماطه بتشغيل معين للقوالب التي تتضمنها."(المتوكل 2013: 501).

وعلى أساس ما سبق، سنروم مقاربة بعض أبيات معلقة عمرو بن كلثوم مقاربة لسانية وظيفية محكومة بمبدأ الوظيفية، القاضي باعتبار الخطاب بنية ووظيفة غايته تحقيق التواصل بين مستعملي اللغة الطبيعية، ولا يمكن إنتاجه وتأويله إلا بالنظر إلى الترابط بين بنيته اللغوية والوظيفة التواصلية المتوخاة منه، بل واعتبار البنية اللغوية تابعة للوظيفة، أو مجرد انعكاس صوري بنيوي للمقاصد والمعاني والغايات التواصلية المرجوة منها.

4- نحو تأويل لساني وظيفي لبعض أبيات معلقة عمرو بن كلثوم:

يندرج العمل الإبداعي، متن الاشتغال، حسب التنميط السالف الذكر، ضمن نمط الخطاب الفني عموما والشعري خصوصا، وهو عبارة عن قصيدة شعرية من الشعر العمودي، تعد واحدة من المعلقات السبع حسب الزوزني والتبريزي وجعفر النحاس وابن عبد ربه الأندلسي وابن رشيق القيرواني وغيرهم من

الشراح، التي حظيت بعناية فائقة في تاريخ الشعر العربي؛ لاعتبارات عدة ترتبط بما هو لغوي إبداعي، وما هو غير لغوي متعلق بظروف إنتاجها ومكانة صاحبها وغيرهما. وقد تناولتها العديد من الدراسات في فروع معرفية مختلفة بالنقد والتحليل، لكن حسب علمنا، لم تنل اهتمام البحث اللساني الوظيفي الحديث بآلياته وإواليات الوصفية والتفسيرية، لهذا سنروم تمحيص مدى انطباقية هذه الآليات والإواليات الوظيفية على هذا النمط الخطابي والسعي إلى الكشف عن مقاصده وغاياته التواصلية، بناء على طبيعة عالمه، وخصائص أسلوبه، وطبيعة بنيته.

1-4 عوالم القصيدة وأبعادها الوظيفية.

لعل ما يميز الخطاب بشكل عام هو تقاسم المشاركين فيه بناء "عالم ذهني مستقل عن "الواقع الخارجي" قد يصف الواقع وقد يقتطع جزءا منه وقد يكون عالما وليد التخيل المحض"(المتوكل 2001: 23)، وبالنظر إلى القصيدة الشعرية التي اتخذنا موضوعا للاشتغال، يمكن الإقرار مبدئيا بتميز عالمها بالتنوع والغنى، فتارة يبني الشاعر عالما تخيليا بعيدا عن الواقع، وتارة يصف الواقع وأحداثه ومشاهده، وتارة يقتطع جزءا منه ويعيد بناءه، ويمكن توضيح ذلك انطلاقا من مطلع المعلقة:

4- أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا وَلاَ تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

من خلال ظروف إنتاج القصيدة، وباستحضار المقام التواصلي الذي قِيلت فيه ومراعاة الخطاب وبنيته اللغوية، يتضح أن الشاعر عمرو بن كلثوم بنى عالما تخيليا يُفترض فيه وجود امرأة يأمرها بأن تقوم من نومها أو تهب وتنتبه إلى جماعته، وتقوم من موضعها للسهر على راحتهم وتلبية حاجاتهم، وسقيهم غداة بقدحها الواسع بكل ما لديها من خمور الأندرين المعروفة بجودتها وقيمتها، لكن لماذا اعتمد هذا العالم التخيلي؟

يمكن الإجابة عنه وظيفيا من خلال مبدإ الوظيفية القاضي بتبعية البنية للوظيفة، أي تبعية بنية الخطاب للمقاصد والغايات التواصلية المتوخاة منه، حيث إن اعتماد الشاعر في مطلع القصيدة على بناء هذا العالم الافتراضي التخيلي لم يأت لإضفاء الجمالية اللغوية والمتعة الفنية على العمل فحسب، بل جاء نتيجة مقاصد الشاعر وغاياته التواصلية، التي يروم من خلالها الافتخار بقومه وبعزّتهم ومكانتهم وأنفتهم وفرض هيبتهم على مخاطبيهم، حقيقة أو مجازا، وضرورة احترامهم ومعاملتهم معاملة الآمرين لا المأمورين؛ لذلك صور الشاعر جماعته في هيئة موكب الوجهاء من القوم الذين يهّب الكل لخدمتهم، ولا يسقون إلا الخمور الجيدة غالية الثمن، والقِيمة المواتية لقيمتهم ومكانتهم وشجاعتهم.

وسيثبت شجاعتهم وعزتهم وأنفتهم هذه، حقيقة، بالانتقال من هذا العالم التخيلي الذي خاطب فيه المرأة أو الظعينة، إلى عالم واقعي خاطب فيه ملك الحيرة أبا هند عمرو بن المنذر، قائلا:

5- أَبَا هِنْدٍ فَلاَ تَعْجَلْ عَلِينَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا

فمن خلال المشاركين في هذا الخطاب، وفحواه القضوي وبنيته اللغوية، يتضح أننا بصدد خطاب يعكس عالما واقعيا، وأحداثا ووقائع طرأت حقيقة، وأفعالا لغوية إنجازية باصطلاح فلاسفة اللغة، بيّن من خلالها الشاعر عمرو بن كلثوم ندّيته لملك الحيرة عمرو بن هند، وسلطته الآمرة والناهية.

وبناء عليه، نخلص إلى أن تنوع عوالم القصيدة وتعددها جاء لدواعي وغايات تواصلية، سعى من خلالها الشاعر إلى الافتخار بجماعته وقيمها وبطولاتها وانتصاراتها، خاصة انتصارهم في حرب البسوس الشهيرة ضد البكريين الذين يحضرون معه في هذا المقام بين يدي ملك الحيرة رفقة شاعرهم الحارث بن حلزة الذي أنشد قصيدته قبله. وقد تأكد ذلك المقصد من انتقاله من العوالم التخيلية حين خاطب الظعينة إلى العوالم الواقعية حين خاطب ملك الحيرة عمرو بن هند. وسيظهر هذا الأمر أيضا على مستوى

الأسلوب والبنية كما سنبين لاحقا.

2-4 خصائص القصيدة الأسلوبية وأبعادها الوظيفية.

يكتشف الناظر في القصيدة من الوهلة الأولى أن أسلوبها، بمختلف مكوناته اللغوية ومستوياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والتركيبية، جاء محكوما بالمقاصد والغايات المتوخاة منها، بل يمكن اعتباره انعكاسا بنيويا صوريا لمرامي الشاعر. ويمكن توضيح ذلك اعتمادا على البيتين الشعريين السابقين (4) و(5).

بالنسبة للبيت الأول (4)، الذي يعتبر مطلع القصيدة، فيمكن تقسيمه وظيفيا إلى ثلاثة أفعال خطابية:

6- (ف خ1): (ألا هبي بصحنك) (ف خ1)

7- (ف خ2): (فاصبحينا) (ف خ2)

8- (ف خ3): (لا تبقي خمور الأندرينا) (ف خ3)

تشترك هذه الأفعال الخطابية الثلاثة في القوة الإنجازية الحرفية المواكبة لها، فكلّها تحمل القوة الإنجازية الدالة على الأمر، سواء كان الأمر بالفعل أم الأمر بالكف عن الفعل، وإذا كانت القوة الإنجازية عبارة عن علاقة تربط بين المتكلم والمخاطب، فإن طبيعة هذه القوة الإنجازية تعكس طبيعة العلاقة بينهما والفوارق الممكنة بينهما، ومن ثمة، فإن توظيف الشاعر للقوة الإنجازية الدالة على الأمر في هذه الأفعال الخطابية المتتابعة على التوالي والدالة عليها صيغ أفعالها الحملية (هُبي، اصبحينا، لا تبقي)، تعكس قصد الشاعر الرامي إلى إبراز وجه العلو والسمو والرفعة التي يحظى بها شخصيا، باعتباره الآمر الناهي، ويحظى بها قومه تبعيا.

وسيتعزز هذا الأمر من خلال الفحوى القضوي لكل فعل خطابي، ومن خلال طبيعة مكوناته (الفعل الحملي، والأفعال الإحالية) والعلاقات بينها؛ فتوظيف الشاعر الفعل الحملي (هب) في الفعل الخطابي الأول (6) (ف خ1) بدل (قام/ نهض...) ينسجم أكثر مع قصده، بحكم أن هبّ تفيد من بين ما تفيده معنى الفزع والسرعة، كما يستفاد من قول الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين" والنائم يهبّ هبّا"، أي الاستجابة الفورية والسريعة لطلب السائل الذي يحظى بما يميزه عن غيره.

ثم إدراجه هذا الفعل الحملي في هذا الفعل الخطابي في تساوق مع الفعل الإحالي (الصحن)، الذي بدوره ينسجم مع افتخار الشاعر بجماعته، بحكم أنه يدل على القدح الواسع الضخم، كما ورد تعريفه في شرح المعلقات السبع للتبريزي (ص222)، جعل فحوى الفعل الخطابي (ف خ 1) برمته يعكس مكانة الشاعر وجماعته السامية والرفيعة.

وهذا ما يتجلى أيضا في توظيفه الفعل الإحالي (خمور الأندرينا) في الفعل الخطابي الثالث (8) (ف خ3) الذي يعكس مكانة الشاعر وقيمته المادية والمعنوية التي تتطلب أن تكون الخمور التي تقدم لهم لا كباقي خمور العامة، بل هي خمور رفيعة كرفعة من ستقدم لهم، لذلك جاء الفعل الإحالي هنا عبارة عن مركب حدي يضم رأسا (الخمور) وفضلة (الأندرين) جاءت لتخصصه، وتحدد مصدره وقيمته.

وما قلناه على البيت السابق (1)، ينطبق أيضا على البيت الثاني (2)؛ فهو بدوره يتكون من أفعال خطابية بينها علاقات الاستقلالية والتبعية، تضم قوى إنجازية حرفية تفيد معنى الأمر أيضا، لكن ما سنثير إشكاله هنا هو المحمول "خبّر" في الشطر الثاني، لماذا "نخَبّر" وليس "نخْبر"؟ أي لماذا هذا المحمول المشتق اشتقاقا غير مباشر(نخبّر) بدل المحمول المشتق اشتقاقا مباشرا "نخْبر"، فلا شك أن التضعيف في المحمول "نخبّر" يفيد التأكيد والقوة واليقين أيضا، وهي كلها معان يتوخاها الشاعر في

القصيدة وتنسجم مع غرضه ومقاصده منها.

ويمكننا الوقوف في البيتين معا عند المستوى الصوتي وأبعاده الوظيفية أو توظيفاته التي تسهم في بلوغ القصد والفحوى المراد إبلاغه من قبل الشاعر؛ ويتضح الأمر جليا من خلال حرف الروي؛ إذ نجد الشاعر اتخذ حرف النون رويا بُنيت عليه القصيدة ككل، وسميت باسمه، لكن لماذا حرف النون دون غيره؟ وما المقاصد والغايات التي اقتضت توظيفه؟

إذا نظرنا في بعض خصائص هذا الحرف وسماته، باعتباره صوتا من حيث المخرج والصفات، يتضح أنه صوت أنفي مجهور ينتج عن اهتزاز الحبلين الصوتيين بقوة، وهاتان الصفتان كافيتان لتعليل سبب اتخاذه من قبل الشاعر صوتا أساسا في القصيدة يتكرر في أخر كل أبياتها، تأكيدا به في كل تلك الأبيات قصده وغايته الافتخار بجماعته وأنفتهم والجهر بها أمام خصومهم. ومن ثمة يمكننا الإقرار بأن المستوى الصوتي بدوره يخدم القصد والغايات التواصلية التي يتطلع إليها الشاعر.

ومن هنا يمكننا الإقرار عموما بأن مختلف مكونات اللغة الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية الموظفة في هذه القصيدة ماهي إلا انعكاس بنيوي لمقاصد الشاعر التواصلية. وهذا ما سنجده أيضا على مستوى بنيتها الشكلية، والترابط بين مكوناتها كما سنبين في الآتي.

3-4 بنية القصيدة وأبعادها الوظيفية.

استنادا إلى آليات وإواليات النظرية الوظيفية التي اتخذناها إطارا نظريا لعملنا هذا، نفترض أن البناء الفني للقصيدة محكوم بالمقاصد والغايات المتوخاة منا، وتتأكد صحة هذه الفرضية بالنظر إلى شكل القصيدة وبنائها الفني؛ حيث اعتمد الشاعر البناء الفني التقليدي ومقوماته الشكلية، خاصة المقدمة ثم الغرض أو الأغراض وغيرهما، واعتمادا على هذين الأساسين، يتبين أن الشاعر اختار مقدمة خمرية،

وانتقل بعدها إلى الظعينة، قبل أن يتحدث عن قومه وأمجادهم وبطولاتهم وشجاعتهم وغير ذلك. وفي ورود هذه المواضيع بهذا الترتيب والحجم أيضا ما يقوي غرضه ومقاصده؛ إذ أمال القلوب بالحديث عن الخمر وصفاتها، وما تحدثه بذي اللُّبانة وباللّحز الشحيح، واستوثق من مطاوعتها له بالحديث عن الظعينة، لينتقل بعد ذلك لغرضه الأساس مفتخرا بقومه وشجاعتهم واستعدادهم الدائم لمواجهة الخصوم أخيرا، في قوله:

9- أَلاَ لاَ يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

وبناء عليه، فتوالي هذه الأغراض وفق هذا الترتيب والبناء جاء نتيجة اختيار الشاعر لقصده وأغراضه التواصلية بناء فنيا يُسعفه في تحقيق مراده، بل اختار له أيضا من الأوزان والإيقاع الموسيقي الداخلي والخارجي وغيرهما من المقومات الفنية الجمالية والشكلية ما يعكس افتخاره بقومه وعزتهم وشجاعتهم وغير ذلك.

خاتمة:

تجدر بنا في ختام هذه المداخلة الإشارة إلى أننا رمنا مد الجسور بين التنظير اللساني الوظيفي الحديث، ممثلا في نظرية النحو الوظيفي، والخطاب الشعري من خلال بعض أبيات معلقة عمرو بن كلثوم، وتمحيص مدى كفاية الآليات والإواليات الوصفية والتفسيرية الوظيفية وقابلية انطباقها على هذا الخطاب، مركزين في ذلك على النمط الخطابي وأثره في بناء عوالم الخطاب وأسلوبه وبنيته ودورها في تحقيق مقاصد الشاعر وغاياته المتوخاة من خطابه، انطلاقا من المبدأ الوظيفي القاضي بتبعية بنية الخطاب الشعري اللغوية للوظيفة التواصلية والمقاصد والأغراض الشعرية المروم بلوغها، متجليا في تبعية مختلف الخصائص الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية فضلا عن عوالم القصيدة المتنوعة بين التخيل والواقع، وبنائها الفني لمختلف المقاصد والأغراض الشعرية في القصيدة الرامية إلى إبراز

البطولة والعزة والأنفة والشجاعة التي يفتخر بها الشاعر. وأملي أن أكون قد وفقت في مقاربة بعض أبيات القصيدة، وفي تقريبكم من المنحى الوظيفي وآفاق استثماره الخطابية الشعرية.

والله من وراء القصد.

قائمة المصادر والمراجع:

جدير، محمد (2007) مقاربة وظيفية لرواية "ضحايا الفجر" لميلودي حمدوشي، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب.

البوشيخي، عز الدين: (1998) قدرة المتكلم التواصلية وإشكال بناء الأنحاء، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، مكناس

البوشيخي، عز الدين: (2012) التواصل اللغوي: مقاربة لسانية وظيفية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1.

التبريزي، أبو زكريا يحي (د.ت) شرح المعلقات السبع، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة–تونس.

عقلي، مصطفى: (2018 ب) تحليل الخطاب بين التعددية والوحدة: نحو مقاربة لسانية وظيفية موحدة، ضمن كتاب" اللسانيات الوظيفية: أصابع مختلفة ليد واحدة"، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ط1.

عقلي، مصطفى: (2018) اللقدرة المعجمية وآفاقها التعليمية: مقاربة لسانية وظفية، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن. ط1.

عقلي، مصطفى: (2020) الخطاب القرآني من منظور وظيفي: سورة الفاتحة نموذجا، ضمن كتاب " تكامل المستويات اللسانية في تحليل الخطاب القرآني"، مؤسسة الراوي للتجارة والخدمات الرشيدية، المغرب. ط 1.

عقلي، مصطفى: (2021) فرضية الفعل الخطاب وآفاقها التفسيرية: مقاربة لسانية وظيفية، ضمن كتاب "النص والخطاب: مقاربات لغوية ونقدية"، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس، المغرب. ط 1.

عقلي، مصطفى: (قيد الطبع) نحو مقاربة لسانية وظيفية لرواية "الطائر البشري" لناصر سامي، ضمن كتاب "أنساق اللغة والخطاب الأدبي: أدوات البناء واستراتيجيات القراءة"، منشورات فريق البحث" المصطلح والتواصل المعرفي"، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال، المغرب.

المتوكل، أحمد (2001) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان، الرباط.

المتوكل، أحمد (2005) التركيبيات الوظيفية: قضايا ومقاربات، دار الأمان، الرباط. (2005أ)

المتوكل، أحمد (2009) مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان

المتوكل، أحمد (2010) الخطاب وخصائص اللغة العربية، الدار العربية للعلوم بيروت، ومنشورات الاختلاف الجزائر، ودار الأمان الرباط.

المتوكل، أحمد (2011) الخطاب الموسّط، مقاربة وظيفية موحّدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف الجزائر، ودار الأمان الرباط، ط1.

المتوكل، أحمد (2013) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ومنشورات الاختلاف الجزائر، ودار الأمان الرباط، ط1.

:Dik,s.c (1978) Functional grammar. Amsterdam: North- Holland.

Dik,s.c: (1989) The theory of Functional grammar: part I. the structure of the clause Dardrecht : Foris.

Dik,s.c: (1997 a) the theory of Functional grammar. part I: the structure of the

Clause- second revised version. Berlin: Mouton de Gruyter.

:Dik,s.c (1997b) the theory of Functional Grammar. Part II: Complex and

Dérived constructions. Berlin: Moutan de Gruyter.

Hengeveld, kees: (2004a) The architecture of Functional Discourse Grammar. in:Mackenzie and Gomez Gonzalez (eds). A new architecture for Functional, Grammar Berlin Mouton de Gruyter

Hengeveld, kees: (2008) Functional Discourse Grammar: A typologically-based theory of language structure. Oxford: Oxford University Press.

Hengeveld, kees. And Mackenzie, John.Lachlan (2008) Functional Discourse Grammar: A typologically-based theory of language structure. Oxford: Oxford University Press.

Mackenzie, John.lachlan (2004) Functional Discourse Grammar and language Production. In Mackenzie and Gromez Granzalez (eds) A new architecture for Functional Grammar Berlin Mouton de Gruyter

Mackenzie, John.lachlan (2009) Revisiter Moutaouakil In: Bouchikhi, Azzedine (ed). Le Fonctionnalisme dans la linguistique Arabe et ses Nouveaux Horizons. Meknès : Université Moulay Ismail. Faculté des lettres et des sciences Humaines. Série de colloques 20.